تاريخ الجهمية والمعتزلة (*)

(٤) انتشار مقالة الجهمية بواسطة كبار المعتزلة وغيرهم

قال الامام ابن تيمية : لما كان بعد المائة الثانية انتشرت المقالة التي كان السلف يسمونها (مقالة الجهمية) بسبب بشر بن غياث المريسي وذويه (ثم قال) وهذه التأويلات الموجودة اليوم بايدي الناس مثل أكثر التأويلات التي ذكرها ابو بكر بن فورك في كتاب (التأويلات) وابو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه (تأسيس التقديس) ويوجد كثير منها في كلام غير هؤلاء مثل أبي علي الجبائي وعبد الجبار بن احمد الهمداني وأبي الحسين البصري وغيرهم ، هي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسي في كتابه ، كما يعلم ذلك من كتاب الرد الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي احد الائمة المشاهير في زمن البخاري ، وسمى كتابه (رد عثمان بن سعيد ، على الكاذب العنيد ، فيما افترى من التوحيد) فانه حكى هذه التأويلات باعيانها عن بشر المريسي ثم ردها ، ويعلم بمطالعة كتابه ان هذا القول الساري في هؤلاء المتأخرين الذين تسموا بالخلف هو مذهب المريسية إهـ .

وقال الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال في ترجمة بشر المريسي : انه تفقه على أبي يوسف فبرع ، واتقن علم الكلام ، ثم جرد القول بخلق القرآن وناظر عليه ، ولم يدرك الجهم بن صفوان ، انما اخذ مقالته ، واحتج لها ودعا اليها إهـ

***

(*) تابع لما نشر في ج ١٠ م ١٦ ص ٧٤٥

(٥) ظهور دولة الجهمية (المعتزلة) في عهد المأمون ، ودعوته الى مذهبهم وما
جرى على المشاهير في مسألة خلق القرآن

من سنن الاحزاب والفرق في هذا الكون ، أن كل حزب قويت عصبته وعصبيته يتطاول الى الغلب ، ويتطالُّ على التغلب ، فيصرف مستطاعه لهذه السبيل ، ويسعى جهده لتأييده من اي طريق امكن ، ابتغاء انفراده ، وتكثير سواده ، فاذا اتيح لعصبة مّا ان تمدها قوة سلطان قاهر ، وجبار مستبد ، وجد لهامن نفوذ الكلمة وانتشار الدعوة ، وكثرة الاعوان ، ما تبلغ به اقصى امانيها ، والناس على دين ملوكهم بين راغب في حطامهم ، أو مقلد يتبع كل ناعق

وقد عرف الخليفة (المأمون) بمحبته للعلم والعلماء ، وشغفه في الحكمة والحكماء ، بل لم ير في اولاد الملوك من تشبق العلوم الحكمية على حداثة سنه ، واقام بين العلماء لمناظرتهم في جميع انواع العلوم مثله ، فما دخل عليه مرة الا وألفي في مجلس من العلماء والادباء . وقد ورث ذلك عن ابيه (الرشيد) فقد كان العلماء والادباء لا يفارقونه في حضر ولا في سفر ، حتى أنه ليطلب شاعره في أطراف الليل فيجده ببابه مع غيره من محدث أو نديم . وانما قرب العلماء الى الرشيد ما بنفسه من الميل الى الأدب ، والحرص على احراز العلوم ، حتى كانوا اذا اجتمعوا بداره سما الى مناظرتهم من حيث العلم والتواضع له ، لا من حيث السيادة عليهم ، وهو بموضعه الجليل من الخلافة . وكان من الفضل بحيث ان مأدبه لم تخل قط من عالم أو أديب أو شاعر . وبلغ به التواضع لهم ان معاوية المحدث الضرير كان اذا جلس الى طعامه قام الرشيد من موضعه وصب الماء على يده تعظيما لقدر العلماء ،

فقال له معاوية: يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك لأشرف من شرفك،

وكانت همة الرشيد مصروفة الى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم بعد ان رأى جعفراً وزيره يبتاع من صحفهم ما يأمر التراجمة بتعريبه، ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرب ذهبا، لان سوق العلم كانت نافقة عند البرامكة، وقد استنهضوا هم العلماء الى تعريب صحف الاعاجم، فنافسهم الرشيد في ذلك، اذ كان في نفسه من الميل الى الأدب، والتشوق الى الاطلاع على كنوز الحكمة ما عرف، فانفذ رسله في احراز الاسفار القديمة، وامر بتعريبها [1] واخباره في العلم ومحاضرات العلماء كثيرة

ولما افضت الخلافة الى ابنه (المأمون) اقتدى بابيه أو اربى عليه، فطارت شهرته في العلم والفلسفة، الى أن حظي بقربه أحمد بن ابي دؤاد [2] وكان ابتداء اتصاله به انه قال: كنت احضر مجلس القاضي يحيى بن اكثم مع الفقهاء، فاني عنده يوما إذ جاءه رسول المأمون، فقال له: يقول لك أمير المؤمنين انتقل الينا وجميع من معك من اصحابك، فلم يحب أن أحضر معه، ولم يستطع ان يؤخرني، فحضرت مع القوم، وتكلمنا بحضرة المأمون فاقبل المأمون ينظر اليّ اذا شرعت في الكلام، ويتفهم ما أقول ويستحسنه، ثم قال لي: من تكون؟ فانتسبت له، فقال: ما أخرك عنا؟ فكرهت ان احيل على يحيى فقلت: حبسة القدر وبلوغ الكتاب اجله، فقال لا اعلمن ما كان لنا من مجلس الا حضرته فقلت: نعم يا أمير المؤمنين

---

(١) عن كتاب حضارة الاسلام

(٢) بضم الدال وفتح الهمزة الممدودة بعده، على وزن فؤاد

وقيل: قدم يحيى بن أكثم قاضيا على البصرة من خراسان من قبل المأمون آخر سنة (٢٠٢) وهو حدث سنه نيف وعشرون سنة ، فاستصحب جماعة من اهل العلم والمروآت ، منهم ابن أبي دؤاد ، فلما قدم المأمون بغداد في سنة (٢٠٤) قال ليحيى : اختر لي من اصحابك جماعة يجالسوني ويكثرون الدخول الي، فاختار منهم عشرين فيهم ابن ابي دؤاد . ثم قال : اختر منهم، فاختار خمسة فيهم ابن ابي دؤاد ، واتصل امره ، واسند المأمون وصيته عند الموت الى اخيه (المعتصم) وقال فيها : « وابو عبد الله ابن ابي دؤاد لا يفارقك، أشركه في المشورة في كل امرك ، فانه موضع ذلك

ولما ولي (المعتصم) الخلافة ، جعل احمد بن ابي دؤاد قاضي القضاة ، وعزل يحيى بن اكثم وخص به احمد ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهراً الا برأيه

وكان ابو العيناء يقول [١] : ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من ابن ابي دؤاد ، وكان اخذ عن واصل بن عطاء مسائل الكلام حتى تضلع من الكلام ، واصبح داعية اليه ، فلما اتصل بالمأمون دس له القول بخلق القرآن ، وحسنه عنده ، وصيره يعتقده حقا مبينا ، الى أن أجمع رأي المأمون في سنة (٢١٨) على الدعاء اليه ، فكتب الى نائبه على بغداد اسحق ابن ابراهيم الخزاعي ابن عم طاهر بن الحسين في امتحان العلماء كتابا يقول فيه :

« وقد عرف أمير المؤمنين ان الجمهور الاعظم، والسواد الاكبر»
« من حشو الرعية ، وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ، ولا استضاء»

(١) عن تاريخ ابن خلكان

« بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله ، وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة »
« دينه ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا »
« بينه وبين خلقه ، وبين ما انزل من القرآن ، فاطبقوا على انه قديم لم »
« يخلقه الله ويخترعه ، وقد قال تعالى « انا جعلناه قرآنا عربيا » فكل ما »
« جعله فقد خلقه [1] كما قال : « وجعل الظلمات والنور » وقال « نقص »
« عليك من أنباء ما قد سبق » فاخبر انه قصص لامور احدثه بعدها »
وقال « احكمت آياته ثم فصلت » والله محكم آياته ومفصله ، فهو خالقه »
« ومبتدعه ، ثم انتسبوا الى السنة ، وانهم أهل الحق والجماعة ، وان من »
« سواهم أهل الباطل والكفر ، فاستطالوا بذلك واغروا به الجهال ، حتى »
« مال قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله ، الى موافقتهم ، »
« فنزعوا الحق الى باطلهم ، واتخذوا من دون الله وليجة الى ضلالهم »

الى أن قال

« فرأى أمير المؤمنين ان اولئك شر الامة ، المنقوصون من التوحيد حظا ، أوعية الجهالة ، واعلام الكذب ، ولسان ابليس الناطق في

---

(١) التفريع بالكلية انما يصح في مادة جعل بمعنى خلق كآية « وجعل لكم السمع والابصار - وجعل الظلمات والنور » لا في جعل بمعنى صير ، ففرق بين المعنيين الخلق والتصيير ، فكما ورد في التنزيل جعل بمعنى خلق ، فقد ورد بمعنى صير ، ومنه آية « انا جعلناه قرآنا عربيا » اي صيره قرآنا عربيا وأنزله بلغة العرب ولسانها ، ولم يصيره أعجميا فينزله بلغة العجم ومنه آيات « ياداود انا جعلناك خليفة في الارض - وجاعلوه من المرسلين - جعله دكا - ربنا واجعلنا مسلمين لك - رب اجعل هذا البلد آمنا » وامثالها مما الجعل فيه بمعنى التصيير البتة . وليس كتابنا هذا للمناقشة والتمحيص ، فلا نطيل بذلك

أوليائه ، والمائل على اعدائه ، من أهل دين الله . واحق ان يتهم في صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق به من عمي عن رشده وحظه من الايمان بالتوحيد ، وكان عما سوى ذلك أعمى وأضل سبيلا ، ولعمر أمير المؤمنين أن أكذب الناس من كذب على الله ووحيه ، وتخرص الباطل ، ولم يعرف الله حق معرفته ، فاجمع من بحضرتك من القضاة ، فاقرأ عليهم كتابنا ، وامتحنهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون في خلق الله واحداثه ، وأعلمهم اني غير مستعين في عمل ، ولا واثق بمن لا يوثق بدينه ، فاذا اقروا بذلك ووافقوا فرهم بنص من بحضرتهم من الشهود ، ومسألتهم عن علمهم في القرآن ، وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق ، واكتب لنا بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والامر لهم بمثل ذلك »

هذه صورة كتاب المأمون في المحنة ، وقد ذيله باشخاص كبار فقهاء بغداد وائمة الاثر والرواية ، وتم الامر بالمحنة التي طار شررها وطال ضررها ، واشتهر من بين رجالها (الامام احمد بن حنبل) رحمه الله ورضي عنه ، ولها في التاريخ ذيل طويل ، وممن استوفى اطرافها التاج السبكي في طبقاته ، فليرجع اليها المستزيد

ثم موضع الغرابة من كتاب المأمون ، هو حمل الناس على غير ما يعتقدون ، واكراههم على امر لم تمض به سنة ، ولم يجدوا فيه برهانا من أنفسهم ، مع أن الاكراه على أصل الأصول ، وما به العصمة والنجاة ، — وهو الدين الخالص — قد اباه الشرع ونهى عنه في غير ما موضع من التنزيل الكريم ، كآية «لا اكراه في الدين» وآية «أفأنت تكره الناس

حتى يكونوا مؤمنين» وآية (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ولكن سكرة الدولة ، وانقلاب الرأي عقيدة بالتسليم والتقليد ، وعظم الطول والقدرة ، كل ذلك يحول دون الانصاف والاعتدال غالبا

وقد يظن ان ما اذاقه المأمون من الاضطهاد لرجال محنته ، كان باعثه ما اشار اليه في رسالته من نبز من اضطهدهم لجماعته بالكفر والضلال ، واشاعتهم ذلك بين العامة ، اذ قال في رسالته المتقدمة اعتذاراً لمن يلم به الملام « ثم انتسبوا الى السنة ، وانهم أهل الحق والجماعة ، وأن من سواهم اهل الباطل والكفر ، فاستطالوا بذلك واغروا به الجهال » وجلي انه لا يطيق الصبر على هذا فئة رأسهم في هذا المعتقد الخليفة فقضاته ووزراؤه

ثم قد يمكن ان يكون ذلك من بواعثه ، وقد يكون انتقاما من اضطهاد سابق ، ومقابلته بالمثل في جزاء الاعتداء بنظيره ، اذ كان للاثرية دولة في عهد الامويين وصدراً من الخلافة العباسية ، وكانت اقوالهم في تكفير مخالفيهم من الجهمية ، ورميهم بالزندقة ، وهدر دمهم ، تغري بهم ، وتحفظ الامراء عليهم ، وتستفز ذوي البطش منهم على الايقاع بهم ، كما يدري ذلك من سبر أقوالهم في الجهمية ، ولم يكن قتل الجعد بن درهم وغيلان الدمشقي ، بل ومثل محمد بن سعيد الشامي المصلوب (١) الا من جراء مقالاتهم فيهم ، والتاريخ ابو العجب

وقد كان بدء المحنة بالقول بخلق القرآن سنة (٢١٨) الى ان افضت

---

(١) اتهموه بالزندقة ، واغروا به ابا جعفر المنصور ، فصلبه ، مع ان غاية ما رمي به انه كان يضع الحديث ، ومع ذلك فقد روى عنه الثوري ومروان الفزاري وأبو معاوية والمحاربي وآخرون ، وقد غيروا اسمه على وجوه ستراً له . انظر بسط ترجمته في ميزان الاعتدال للذهبي

الخلافة الى المتوكل. فأمر سنة (٢٣٤) بترك النظر والمباحثة والجدال وترك ماعليه الناس في ايام المعتصم والواثق من القول بخلق القرآن، وامر الناس بالتسليم والتقليد، وامر الشيوخ المحدثين باظهار السنة والجماعة. ولكل زمان دولة ورجال .

قال نابغة البلغاء ابو بكر الخوارزمي في احدى رسائله : ليس من فرق الاسلام فرقة ، الا وقد هبت لاهلها ريحة ، ودلت لها دولة ، كما اتفق المختار بن عبيد الله للكيسانية ، ويزيد بن الوليد للغيلانية ، وابراهيم ابن عبد الله للزيدية ، والمأمون لسائر الشيعة ، والمعتصم والواثق للمعتزلة ، والمتوكل للنواصب والحشوية اه

(٦) اول من صنف من المعتزلة في محاجة الاثرية

قال السفاريني في شرح عقيدته : معظم خلافيات علم الكلام مع الفرق الاسلامية خصوصا المعتزلة ، لانهم اول فرقة اسسوا قواعد الخلاف ، لما ورد به ظاهر السنة ، وجرى عليه جماعة الصحابة رضي الله عنهم . فأول من صنف في علم الكلام والجدال والخصام مع أهل السنة والجماعة ابو حذيفة واصل بن عطاء ، وهو رئيس المعتزلة واول من سمي معتزليا ، وله من التصانيف كتاب المنزلة بين المنزلتين وكتاب الخطب في العدل والتوحيد وكتاب السبيل الى معرفة الحق ، وكتاب معاني القرآن ، وكتاب ماجرى بينه وبين عمرو بن عبيد ، وكتاب التوبة ، وله غير ذلك ، وكانت ولادته سنة (٨٠) وتوفي سنة (١٣١)

قال ابن خلكان : كان واصل احد الائمة البلغاء المتكلمين وكان في ايام عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، — كما حكاه الشهرستاني

ومثله في السبق الى التصنيف في ذلك عمرو بن عبيد — من كبار ائمة المعتزلة له كلام كثير في العدل والتوحيد على اعتقاد المعتزلة توفي سنة (١٤٣)

قال الذهبي في الميزان: كان المنصور — الخليفة الشهير — يخضع لزهد عمرو وعبادته ويقول: كلكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد

* *

(٧) تلقيب المعتزلة بالقدرية وسبب التسمية بذلك

قال الشهرستاني: المعتزلة يسمون اصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية: وذلك لاسنادهم افعال العباد لقدرهم وانكارهم القدر فيها موافقة لرأي معبد الجهني، وغيلان الدمشقي القدريين

وقال ابو منصور البغدادي في كتاب (الفرق) في تعداد المسائل التي اتفق عليها القدرية المعتزلة: ومنها قولهم جميعا بان الله تعالى غير خالق لأكساب الناس، وان الناس هم الذين يقدرون اكسابهم، وانه ليس لله تعالى في اكسابهم صنع ولا تقدير، ولاجل هذا سماهم أهل السنة قدرية اه

وقال ابن الاثير: سموا قدرية لانهم اثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا ان تكون الاشياء بقدر الله وقضائه. وقد قالوا لمخالفيهم انتم الأولى بتسمية القدرية، لانكم تجعلون الاشياء جارية بقدر من الله، ومثبت الشيء احق بالنسبة اليه من نافيه، فاجابهم المثبتون بان مثبت الشيء لنفسه أولى بالنسبة اليه ممن نفاه عن نفسه اه

وقال الامام ابن تيمية: في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية، واصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الايمان بقدر الله، و الايمان بامره ونهيه، ووعده ووعيده، وظنوا ان ذلك ممتنع، وكانوا قد آمنوا بدين

الله وامره ونهيه، ووعده، ووعيده، وظنوا انه اذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي، لأنهم ظنوا ان من علم ما سيكون، لم يحسن منه ان يأمر وهو يعلم ان المأمور يعصيه ولا يطيعه، وظنوا أيضاً انه اذا علم انهم يفسدون لم يحسن ان يخلق من يعلم انه يفسد، فلما بلغ قولهم بإنكار القدر السابق للصحابة انكروا انكاراً عظيما وتبرؤا منهم، حتى قال عبد الله بن عمر: اخبر اولئك اني بريء منهم وانهم مني براء، والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو ان لأحدهم مثل احد ذهبا فانفقه ماقبله الله منه حتى يؤمن بالقدر. وذكر عن ابيه حديث جبريل، وهذا اول حديث في صحيح مسلم، وقد اخرجه البخاري ومسلم من طريق ابي هريرة أيضا مختصراً

ثم كثر الخوض في القدر، وكان اكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه في المدينة. فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم، وصار نزاع الناس في الارادة وخلق أفعال العباد، فصاروا في ذلك حزبين، النفاة يقولون: لا ارادة الا بمعنى المشيئة، وهو لم يرد الا ما امر به، ولم يخلق شيئا من افعال العباد. وقابلهم الخائضون في القدر من الجبرة مثل الجهم بن صفوان وامثاله، فقالوا: ليست الارادة الا بمعنى المشيئة، والامر والنهي لا يستلزم ارادة، وقالوا: العبد لا فعل له البتة ولا قدرة، بل الله هو الفاعل القادر فقط. وكان جهم مع ذلك ينفي الاسماء والصفات اهـ

(لها بقية)